التعليقات التي وجهها اليه نقاده في تفسير التاريخ ، وملء ثغرات كثيرة توصل الى معرفتها بعد ان شاهد بنفسه عددا من البلدان التي لم يكن يعرفها الا من خلال الخرائط والوصف العام · جمعها في مجلدين اخيرين من كتابه « دراسة في التاريخ » (انتهى من مجلده ١٢ وعنوانه Reconsideration عام ١٩٦١) · وصدر له بعد ذلك كتابان الاول بعنوان Aquantances ١٩٦٧ والثاني بعنوان Experiences ١٩٦٩ · وعند وفاته في اكتوبر ـ تشرين اول ـ ١٩٧٥ كان رصيده ، الى جانب هذه المؤلفات ، العديد من المحاضرات والمقابلات ومقدمات الكتب ، وهو في جميع كتاباته يجمع بين المعرفة الواسعة ووضوح التفكير وبعد النظر والحماسة المتناهية لمادة موضوعه ·

وتظهر الخطوط الرئيسية لفلسفته التاريخية الموسعة في مؤلفه الضخم « دراسة في التاريخ » وخاصة في مجلداته الستة الاولى · وقد تكونت نظريته بحكم عاملين رئيسيين ثقافته الاولى كدارس للتاريخ القديم ثم رحلاته الى منطقة الشرق حيث درس عوامل انهيار الامبراطورية العثمانية · وشغله قيام وانهيار الحضارات الشرقية على البحر المتوسط ، وسعى الى تطبيق تاريخ الشرق الادنى على مناطق اخرى من العالم · وخالف بذلك المؤرخين الغربيين الذين يقصرون معالجتهم على التاريخ الغربي او ينظرون الى تاريخ الامم الاخرى من خلال علاقته بالتاريخ الغربي · ويرى انه لا يمكن فهم تاريخ دولة ما ، ما لم تتوسع دائرة الرؤية بحيث تضم شبكة كاملة تربطها ثقافة مشتركة وتقليد طويل من العمل والمعاناة المشتركين · ومثل هذه الشبكة هي التي تشكل الحضارة · ولا يقسم توينبي التاريخ الى عصور ولا الى دول او الى احداث ، بل الى وحدات حضارية واضحة ، يضم كل منها مجموعة من البشر يجمعها طابع فكري ، واتجاه ذهني ، ومثل عليا مادية ومعنوية ، ونمط حياة متقاربة ·

واختار توينبي احدى وعشرين تجربة حضارية ، خمس منها معاصرة ، وبقيتها قد اندثرت (وسماها المدنيات المتحجرة Fossi) ودرسها دراسة عميقة وبحث عن اسباب قيامها وعوامل نجاحها وفشلها ، فوجد انها تتبع نمطا واحدا في نشأتها وازدهارها واضمحلالها ، طبقا لما سماه نظرية التحدي ورد الفعل في تاريخ الانسانية ، وهي النظرية التي كثر الجدل حولها وسيستمر ، ويمكن تبسيطها على النحو التالي :

حين تواجه حضارة ما بتحد تقوم نحوه باستجابة ناجحة ، وهذا يولد القدرة على مواجهة تحد ابعد ، وكلما كبرت المصاعب في حياة المجموعات ازدادت تحضرا · وقد تستجيب حضارة ما للتحدي بينما لا تفعل اخرى ذلك · والسبب وجود اقلية مبدعة تأخذ على عاتقها عبء التحدي وتدفع وراءها الجماعة غير المبدعة بقوة المحاكاة ، التي تمكن انتقال مهارات جديدة من الاقلية نحو الاكثرية · وقد تفرض الاقلية ارادتها كأقلية مسيطرة تتمسك بالزعامة كامتياز بطريقة لا تساعد الحضارة على تخطي مشاكلها ، او تنسحب من مسؤولية المجتمع · ولو اتبعت احد الطريقين تتوقف عن ان تكون قادرة على الاستجابة بشكل خلاق للتحديات الجديدة · ولو حدث هذا فالحضارة ستنهار ، وتنقلب العلاقات بين العناصر المختلفة للحضارة من علاقات انسجام الى علاقات عنف واكراه · وقد تنبعث منها في حالة الاحتضار اعمال ابداعية تضيء العالم المحتضر ، هي نتاج حضارة في فترة تراجع ·

ولا يعتقد توينبي ان الحضارات عليها ان تموت « الحضارة ليست كائنا عضويا ، انها نتاج ارادات » · وان تجارب الامم لا تموت بل يرث بعضها بعضا · الذي يموت من